«انحراف باتجاه خط العرض» عمل جديد للسوداني جمال محجوب:

عن الجاز والمعمار والشرط الانساني.. البحر هو بداية السؤال وجسر الولاء والانتماء

ابراهيم درويش *

جمال محجوب كاتب سوداني، اصدر حتى الان ست روايات نالت حفاوة نقدية، ولانه يعبر عن ثقافة المزيج، بريطاني ـ سوداني مثلا فرواياته تدور في هذا الاطار ـ محاولة استكشاف الهوية والولاء والانتماء، والتأكيد على ان معرفة العالم غير ممكنة بدون معرفة النفس، وان معرفة الطريقة للنهاية غير متاح دون معرفة البداية. وقارئ روايات محجوب يعثر على هذا التوزع والتجاذب بين السودانية في حياته والاوروبية، فهو اي جمال محجوب قادر على استعادة الجو او الفضاء السوداني اذا اراد العودة لذلك وقادر على تصوير المجال الاوروبي الذي يتحرك فيه الابطال ان ارادوا، ولكن في كل العلاقات التي يقوم بها الابطال تنتهي، وكأن الزواج بين الاعراق محكوم عليه بالفشل، مثلا في رواية «الرحيل مع الجن» تعلن ايلين نهاية الزواج لياسين ظاهر في البداية، وفي رواية «علامات الساعة» يعود هاوي من رحلته الاوروبية بدون ان يقيم علاقات مع نساء اوروبا، اما في عمله الاخيرة (انحراف باتجاه خط العرض) فراشيل تنهي زواجها من امين بعد النهاية المفجعة لابنها سيف، الذي يقتل اثناء مشاركته في الحرب في الجنوب، وتعود لاستكشاف تاريخ والدها وعلاقتها المضطربة مع امها وتاريخ والدها الالماني الرحالة والمخترع. لعل ما يميز الرواية الجديدة ان البحر فيها موضوع فهي عن البحث عن الذات، في داخلها «جيد» المعمارية التي تعمل في شركة تصميم وهندسة معمارية محترمة (غايلز، ستوك اند ويفرلي)، وتواجه عددا من التحديات لعل اهمها وفاة عامل «غير شرعي» في المشروع الذي صممته ومحاولة المعمارية المنافسة لها الاستفادة من هذا الحادث لكي تجد حظوة عند مدير المكتب المعماري، يطلب منها كايل، المدير ان تختفي قليلا عن العمل حتى يتم التغلب على الصعوبات، وهي تجد صعوبة في قبول الامر لانها المسؤولة عن التصميم ولان تصميمها هو ما جلب العقد للمكتب. نعرف فيما بعد ان عملها في هذه الشركة بدأ عندما كانت صغيرة مع والد كايل، المدير الجديد، ونعرف ان عملها كان بداية النهاية لزواجها.

تحدثنا جيد عن كايل، الشاب المتردد، الذي لم يكن بمستوى المهمة بعد وفاة والده، ولكنه استطاع الحفاظ على مستواها كأحسن مؤسسة تصميم معماري في لندن، واعتمد في هذا على الجيل الذي عمل مع والده، وكانت جيد واحدة منهم، اي قبل الحادث الذي سيعيد جيد للبحث عن مركز جذب حياتها، والرحيل في ذاكرة والدها. حينما تشعر انها في مازق ومركزها مهدد، تدفع الى جافة الادمان والبحث عن ماضي والدها، حيث تحدثها اختها غير الشقيقة عن علاقة والدها ارنست فراغر مع والدو شميدت، وعندها تذهب للبحث عن والدها وتتعرف عليه وهو شاب في خمسينات القرن الماضي في ليفربول، المدينة التي كان يعيش فيها اشتات من البشر، الميناء الذي تحضر اليه البضائع لكي تملأ المخازن وجيوب التجار بالمال، في هذا الفضاء المتنوع يتعرف فراغو الذي فر من المانيا وذكريات الحرب فيها على فتاة من تريندار، ميرندا، وهو ما يفسر لون جيد، فهي هجين ومزيج بين اب ابيض وام سمراء من الكاريبي.

جيد تقول «يبدو لي ان هناك لحظات في الحياة لا نبحث عنها ولكنها تأتي الينا، والطريقة التي نرد فيها على تلك اللحظات تحدد من نحن وكيف نواصل الحياة.....». يلتقي الاب ارنست مع الام في ناد للموسيقى يملكه نوبي سوداني، ناد للجاز اسمه «النيل الازرق»، ميرندا التي نلتقي بها وقد بدأت تفقد عقلها كانت منذ البداية فتاة غير مشوشة.

اما عن راشيل فهي اخت ليست شقيقة كانت نتاجا لعلاقة بين الاب ارنست وصاحب وكالة استيراد وتوريد الات ارثر بريستون. راشيل تهاجر الى السودان مع زوجها امين الذي يتحول لمكة والدين وتختفي لديه الطموحات الكبرى، السودان الذي رحلت اليه راشيل كان بلدا ريفيا ـ مضيافا كالعادة ورغم الحفاوة ومحاولة تقبل الفتاة الانكليزية القادمة من المدينة ولا تعرف الطبخ فان ما كانت تعاني منه راشيل هو غياب الخصوصية، فالحياة في السودان تعني الانتماء للجماعة والعيش في داخلها. لكن الخيط الذس يقطع علاقتها مع السودان وزوجها هو تحول ابنها الى التشدد الديني. في هذا السياق تبدأ راشيل تتحدث عن علاقة والدها مع مزور اللوحات الفنية شميدت. العالم الذي يقدمه محجوب هو عالم فوضوي، يتقاطع احيانا، يتداخل، ويدور حول نفسه من المانيا النازية وحرائق اللوحات الفنية، الى الايام الاخيرة في جمهورية فايمار، والدو شميدت يهاجر من المانيا في نهاية ثلاثينات القرن الماضي، ويلتقي مع ارنست، الذي كان نسخة متناقضة عنه، فالاب/ ارنست كان مخلصا، واضحا في ولائه لبلده، على خلاف شميدت الذي كان يبحث في ارنست عن علاقاته، ولهذا لم تكن مصادفة ان يلتقيا في معرض لندن التجاري. وبعيدا عن اجواء لندن واوروبا، تبحر الرواية في السودان الذي شهد تحولات كبيرة منذ الاستقلال، من الشباب الساعي لبناء بلده بعد الاستقلال الى الخيبة والسجون والتعذيب الى الثورة الاسلامية وعهد ثورة الانقاذ. وفي هذا العالم يمزج محجوب بين المعمار، الموسيقى، الذاكرة والزمن بحيث يصبح فيه السرد او الكتاب غرفة صدى، ويدور الابطال هنا في داخل ثلاث حركات يقطعها صوت راشيل الذي يصبح بمثابة الدليل لجيد، هنا تقدم لنا رسائل او بطاقات راشيل لاختها من السودان صورة عن الهواجس والهموم التي احاطت بهذا البلد، وهموم الجيل، الذي عاش ذروة الامل والخيبة في كل تجلياتها. يستخدم محجوب هيرمان ميلفيل الذي كان يبحث عن والده في ليفربول. وهنا لا بد من الاشارة الى رمزية البحر في هذا العمل، فالبحر المحيط هو الذي يربط الدول والقارات وهو المسافة التي تفصل بينها، وهو الزمن الذي يفصل بين جيل وجيل داخل العائلة، والعبور في البحر، بالذاكرة او عبر غواصة هو في النهاية عبور او ابحار باتجاه الهوية الحقيقية. يمثل والد جيد، صورة عن هاجس التجوال، فهو ليس مشردا او شخصا مسكونا بهم ما، بقدر ما يتعلق الامر بعدم قدرته على بناء جذور في مكان، ولهذا يرحل دائما بهدوء، تستقيط يوما ميراندا التي شاركها اياما جميلة في غرفة في مدينة ليفربول في احد الصباحات لتجد الرجل، رجلها قد رحل. هاجس الرحيل، هو في النهاية صورة عن رضوض الذاكرة في الوطن، فهو يخشى من البقاء لئلا يتعرض لاثار لوثة السياسيين. جمال محجوب، الذي يجدل اشياء كثيرة في عملية السرد، الفن والموسيقى، اوروبا الصناعية، والنهضة، الدين والسياسة، معني بتوضيح كيف تتحول مأساة الحاضر وتعقيدات اليوم الى صورة عن تعقيدات الماضي، خفاء ولغز النشوء، الولاء والانتماء. حتى عندما تبدأ جيد رحلة استعادة سيطرتها على زمنها في شركة المعمار، وتعتمد على خبرات محقق خاص لكي يحدد هوية هذا العامل غير الشرعي الذي سقط ميتا في موقع العمل، فان عمل المحقق يتحول الى بحث في حياتها، فهنا يعكس التحقيق تاريخها الملغز اكثر من هوية العامل المجهولة. فجيد، تبحر في تاريخها وهي بحاجة لمرساة او عمود امان يساعدها على الوصول لبر الامان. وفي هذا السياق تبدو مأساة اختها غير الشقيقة، التي تجسد في كل شيء هوس والدها في الترحال والهجرة، علامة الامان لها، فخسارة راشيل، تصبح فوزا لجيد، حيث تستعيد كل الاماكن التي مر بها والدها، ومن ضمنها نادي «النيل الازرق» الذي غنى فيه عدد من فناني الجاز، والمثير للسخرية ان البحار الذي تحول الى صاحب ناد، اسماعيل بلال لم يكن يعرف عن الجاز شيئا، ولكن النادي صار بمثابة الواحة للباحثين عن حب او علاقة دافئة، وهو بمثابة مكان يقف على تقاطع الطريق بين اوروبا وافريقيا، الذي يمثلهما هنا، ارنست، وميراندا. رواية محجوب هي عن الشرط الانساني، وعن اهمية الولاء والانتماء خاصة للاشخاص الذين يجدون انفسهم على حافة الطريق، في الهامش او الذين يعيشون في المركز ويحملون في داخلهم تاريخا معقدا، فالبحث عن الشيء المفقود يفضي في النهاية للبحث داخل النفس. في روايته الاخرى «اسفار مع الجن»، يحاول ياسين ظاهر، شرح تاريخ اوروبا لابنه، بعد اعلان زوجته ايلين انفصالهما، ولكنها تطلب منه ان يقيم علاقة مع الابن قبل فوات الاوان، يقرر ياسين اخذ ابنه في رحلة الى اوروبا، بدلا من بلده السودان، فظاهر يشعر بالانتماء لاوروبا اكثر من وطنه الاصلي، وتصبح الرحلة ضربا من العبث امام انشغال الاب باكتشاف نفسه وعكس تاريخه الشخصي على تاريخ اوروبا، وفي النهاية يقدم ياسين روايته عن التاريخ التي تختلف بالضرورة عن التاريخ الذي يدرس في المدارس الاوروبية، ولكن الرحلة التي لم تنجح باستعادة الاب لابنه، او عقد صداقة، تتحول في مداها الى رحلة في الذات، وتشير لعزلة ياسين عن عالمه الذي اعتقد انه ينتمي اليه، تماما كما يشعر بالعزلة في وطنه الام، هنا تجربة الهجرة والمهاجر، تخلق زمن المابين، فهو ليس هنا او هناك، في مسجد باريس، يقول لنا الروائي ان ياسين اجبر على الخروج لاعتقاد البعض ان ياسين هو سائح اوروبي.

جمال محجوب (القدس العربي)

في حالة جيد، فان نهاية رحلة البحث ليست مهمة، فالبحث في الماضي، الذكريات، هو جزء من البحث عن محددات الشرط الانساني، فهي لم تعد في نهاية الطريقة تحلم ببناء الابراج العالية، ونهاية الرحلة تعني ان عليها الاعتراف بنقصها او عدم اكتمال حياتها، فالصعود للسماء وبناء العمارات العالية للشركات العملاقة والمتعددة الجنسيات لم يعد يثير اهتمامها، فهي تريد العودة لمعمار المدن، معمار الحياة الانسانية، وكيف يعيش الناس حياتهم الاعتيادية في هذه المدن. اما عن راشيل، فهي تعيش معزولة في عالمها تنتظر سيف، الذي يأتيها، وناداها عندما مات في الجنوب ولم تكن معه، وهي مثل اختها في رحلة بحث عن الماضي، والذي تعثر عليه احيانا مخبأ في اوراق الليمون.

ما يثير في قراءة محجوب ان اعماله لا تتحدث بجدية عن علاقة الشمال بالجنوب، وعبثية العلاقات بين الاعراق او الزيجات المختلطة، فهو مشغول اكثر بالهم الانساني العام، ورحلة الانسان في بحثه عن قدره، وعثوره على مستقبله من عبر الماضي. كما ان الكاتب هنا ليس معنيا بتحليل فكرة التدين او الدين، فالابن سيف يذهب الى الجنوب ليقاتل في جهاد ضد المتمردين، ولكن الكاتب هنا ليس معنيا بالادانة، او الدفاع، انه يرسم لنا مشهدا عن المأساة والفجيعة الانسانية وفقد الام لابنها، وعودتها الى زمنها الاخر، الذي تركته وراء ظهرها في بريطانيا.

في اعمال جمال محجوب الاولى كان مشغولا بتاريخ السودان «اجنحة الغبار» (1994) عن منفي سوداني يحلل سنوات الاستقلال، «علامات الساعة»، تاريخية عن الثورة المهدية في السودان والاحتلال البريطاني، حيث يحضر المصلح السوداني محمد احمد المهدي، والجنرال البريطاني غوردون باشا الذي قتله اتباع المهدي كرمزين، يلقيان ظلهما على الابطال العاديين من الرعاة، والمزارعين والجنود. في رواية «المرسال» (1998) عن علم الفلك، ورحلة نوبي سوداني راشد الكنزي، ابن عبد نوبي يشتري حياته بعد ان اتهم ظلما بالقتل من خلال الحصول على تلسكوب يمكن استخدامه في سرد اجمل واغرب الحكايات. والرواية تغوص في مسألة العرق، والعبودية ولكنها ايضا عن الفضول العلمي، حيث اظهرت الرواية اهتمام كاتبها بالتطور العلمي الغربي وسبب عدم حدوث مثل هذا في التفكير الاسلامي.

ولد في لندن عام 1960، حيث كان والده يعمل في المركز الثقافي «بيت السودان»، وقضت عائلته فترة في مدينة ليفربول، عاش طفولته في الخرطوم، ودرس في كلية كامبونيس قبل ان يحصل على منحة للدراسة في كلية «اتلانتيك» في ويلز، ودرس علم الجيولوجيا في جامعة شيفيلد، وخلال دراسته كان ينشر قصصا واعمالا ادبية. رجع محجوب الى السودان بحثا عن عمل ولكنه قرر تكريس نفسه للكتابة، وعاش في لندن، والدنمارك، والان يعيش في برشلونة، اسبانيا، وكذلك قضى فترة طويلة في فرنسا. عمل في اكثر من مجال، في مجال الغذاء، والتسويق، والعمل الصحافي، والترجمة من العربية والدانماركية، والكاتالانية، ونشر اعماله الثلاثة الاولى ضمن سلسلة الكتاب الافارقة التي اصدرتها دار هاينمان. واول عمل نشره كان «رحلات صانع المطر» (1989).

The Drift Latitudes
Jamal Mahjoub
Chatto & Windus, London/2006

* من اسرة «القدس العربي»

رد على محمد عبيد الله:

الشاعر ليس نبيا ولا عابد أصنام!

عبد الله كرمون *

أرُدُّأم لا أرد؟

ليحار المرء كثيرا متى شق عليه الأمران والتبس لديه من منهما أجدى من الآخر.

أرى أن الصمت أهون ومتناول وأخشى أن أكون ان قمت، مثل متصوف مست قداسة قطبه وانبرى للذود عنها. وما دمت لست كذلك وليس لي تعلق بمطلق ما، أي مطلق. وليس في الشعر قطب ولا مريد وليس رامبو نبيا ولا صنما. وأجد، خلاف ذلك، أن سلامة الصمت مضنية لذلك لا بد من بعض توضيحات.

في الوهلة الأولى يتراءى للقارئ أن د. محمد عبيد الله «القدس العربي»: 1 آذار (مارس) 2006 يطرح فعلا سؤالا أساسيا بل ويعنون به أكثر من ذلك مقالته: «لماذا كل هذا الافتتان العربي برامبو؟» قد يكون سؤالا جيدا لا محالة غير أن المؤسف حقا هو أنه لم يقاربه بل عمد في حديثه الى لَمّ سؤاله في عباءة استنكار لا يحتاج الى جواب وبنى بالتالي، كما يلزمه به منطقه، خطابه على انشاء استنكاري سقطت عليه غشاوات شتى كي ينسى كل اسهام رامبو في الثقافة الانسانية. اذ ماذا يعني أن يبدأ تحامله عليه بـ: «... بل انك تحس أحيانا أن الشعراء العرب يذكرونه بحنو عجيب، كما لو كان واحدا منهم، أو كما لو أنه يرتبط معهم بنسب...». في الحقيقة لن يستوي أي نقاش مع من يستل مثل هذه الخطابات العائمة والتي لا تعرف لنفسها رأسا ولا رجلا. فهل نحتاج دائما أن يربطنا نسب ما أو علاقة جوار أو منفعة ما مع شاعر استرالي أو مع مفكر أو سينمائي بولوني كي نقرأه ونرى أفلامه ونحب أو نكره كتاباته، وخلاصات تفكيره ورؤاه الفنية؟

أرى أن ضيق النظر والتقوقع الضيق في مفاهيم معدة ومسيجة بعناية منذ الأبد قد حال بين كثير ممن شاؤوا الاشتغال بالثقافة والفن خاصة منهم أغلب النقاد الجامعيين الذين يعتقدون أن المعرفة هي ملكهم وأن النقد والفكر لا يتم ولن يتم الا تحت وصاياتهم، أن من يعتبرونهم ليسوا شعراء فهم اذن ليسوا شعراء وأن ما يفرضونه من مقاييس لقراءة الشعر والأدب هي مقدس آخر ينضاف لكل تلك الأحمال الثقيلة التي ما تزال جهالة المتعلمين تراكمها الى ما لا نهاية.

لست أدري لماذا اختار الكاتب رامبو فقط ليوبخه أمام الناس جميعا دون أن يلحق به كل كبار الثقافة العالمية اذا كان كل جهده في تناول الفكر والأدب يقتصر على مجرد شتم هو سليل أخلاق مرتبطة بمنظومات أخرى خارج دائرة اهتمام الأدب الحر في سعيه الى سبر كل نوازع وخسارات الذات الانسانية. فأن يكتب: «لكن ما تدل عليه قصائده، (...) أن هناك مخلوقا مضطربا اضطرابا مرضيا ومهووسا أنتج نصوصا مريضة ليس فيها قيم انسانية بقدر ما فيها من عداء ومناهضة لما هو انساني، رامبو أحد كبار المرضى المتفوقين...». دليل على أنه لم يفهم شيئا لمعنى الكتابة لدى رامبو ولمعنى حتى الاستهتار بقيم ما. غير أنه لم ينته بعد بل يضيف أن: «شخصيته (...) ليست أكثر من شخصية منحرف مستعد للاجرام ولكل الموبقات».

لم يدرك الكاتب ماذا يريد أن يقول، لذلك قال أشياء كثيرة ولم ينتبه لكونه ظل يرتمي على أرض لتكاد تبتلعه لأن وجوده غريب عليها أكثر مما هي غريبة عنه. فليس من السهل أن يحب القارئ شعر رامبو أو لوتريامون أو أرتو أو روفيردي وغيرهم. لكني أتساءل كيف سوف سيتعامل د. محمد عبيد الله مع شعراء من أمثال أبي نواس وبشار والمتنبي والحسين بن الضحاك وصالح بن عبد القدوس وعبد الله بن قيس الرقيات وغيرهم؟

قد لا يشترك نسبا مع بعضهم، ان كان أمر النسب يؤرقه الى هذا الحد، لكن اذا تتبع «عوراتهم» سوف يفضي به القول الى استنتاج بأن كل هؤلاء، وهم مجرد أمثلة، هم مرضى الثقافة العربية بنفس المنطق الذي اعتبر به رامبو من مرضى الثقافة الغربية، وله أن يشخص مرض كل واحد بعناية. أمر آخر، ما أحوجه اذن به كي يزين طباعه، ألا ينسى أن يعتبر الثقافة العالمية كلها «مرضا» ويستريح، أو لربما يكون بصدد اكتشاف نظرية جديدة في علم النفس!

لم يكن هدفي السخرية ولكن السياق في هذه الحال كان من يفرضها، ذلك أن قراءة متأنية لرامبو وبودلير وغيرهما، لكفيلة بفهم دورهما وتأثيرهما في الحركة الأدبية والفنية في الغرب والشرق على حد سواء الى جانب اسهامات آخرين كثر سواء في جدة الرؤية التي انساقوا بها مع حياتهم وعاشوا كما فكروا وأحسوا به قبل أن يتعلق الأمر بقرض ورق الكتابة، ذلك ما جعل من صدق تمردهم رافعا جديدا وعميقا لخلخلة مفهوم الابداع بشكل عام. ولا احتاج أن أذكر بأن الفكر الانساني لا يبنيه فرد واحد ولا ثلة من الأشخاص ولا حقبة أو عصر من العصور، وان طالما كانت بصمات البعض هامة في فترة أو أمر تاريخيين معينين، وانما هو متتالية من البناء والهدم والتراكم لا تقف عند حد بل تمضي في تصاعد، وتلزم أولا في ما نحن بصدده معرفة جيدة بالثقافة والأدب الغربيين كي نستطيع أن نتبين موقع رامبو وغيره في سياق ثقافي وتاريخي معين ونقرأ نصوصه لنستطيع بالتالي أن ندرك ماذا قدم وكي ومتى ولماذا؟ أما اذا نحن اقتصرنا على اعتباره سكيرا وأنه لا ينتج نصوصه سوى تحت تأثير المخدر فماذا سنفعل بكل الكبار الذين يعلنون كون ذلك توطئة هائلة لصفاء ذهني كبير، وقدموا بالملموس وبسبب ذلك نفسه، وهذا هو الأهم، نصوصا عظيمة وما تزال.

أتعجب ماذا سوف يفعل د. محمد عبيد الله بالسريالية كلها، حركة وفهما للعالم ؟!

أفهم قليلا ولا أتفهم تحامل الكاتب اذ كما أشار الى ذلك لم يقرأ رامبو في اللغة الفرنسية لأنه يجهلها، ولكنه قرأه بعد أن ترجم كما اعترف في أجمل اعتراف جريء قرأته: «... ونحن لا نعرف الفرنسي (لربما كان هذا خطأ طباعة!) لولا أن أشفق علينا بعض الغيورين فترجموه لنا ...»، غير أنه في موضع آخر لم تكن له الجرأة أو حقيقة المعرفة اللازمة لأن ينتبه الى أن تلك الترجمات التي ذكر رديئة مثل غيرها، غير أنه ومع ذلك فطن الى أمر ما، لدى استعماله لإحدى الأدوات العلمية أي المقارنة، لما اكتشف وهو يقول: «وقد قارنت بين ترجمة خوري وترجمة جهاد (...) فوجدت ما يستطيع أي قارئ أن يتبينه من سوء الفهم والاضطراب والاختلاف في فهم النص الأصلي». لم ينتبه أن التأثير الذي قد يكون ممكنا لن يتأتى بالضرورة من الترجمات، جيدة كانت أم رديئة، ولكن أولا، بشكل أساسي، من الاتصال المباشر بالنبع أي بالنصوص الأصلية في لغاتها الأم ان تحدث عن كتاب آخرين ولغات أخرى. لكن الكاتب ليكاد يجزم أن لا أحد يتقن الفرنسية لما تحدث عن كون الذين أتيحت لهم الفرصة كي يقرأوا رامبو في الأصل قلة، ثم مضى في اصدار أحكام دون تمحيص أو دقة معرفية، وان كان دأبه كذلك على طول مقالته، لما تحدث عن انحسار أو عدم معرفة الناس لرامبو بكثرة في المشرق وكيف بالمغاربيين أن يعرفوه، وان لغرابة الأمر ثانية، ترجمه مشارقة وليس مغاربة اذ المغاربة أولى بذلك لكون المشارقة أوتوا الانكليزية في الوقت الذي تلقى المغاربة فيه الفرنساوية لحسن حظهم. تلك اذن تعميمات لا أساس لها ولا معرفة للكاتب بالأوساط المغاربية كي يدرك أنهم أيضا مثل غيرهم على اطلاع بلغات أخرى من غير هاتين اللتين تتنازع نسبتهما لطرف دون آخر وأنهم أنجزوا أيضا ترجمات.

لن أحاول أن أثير كل المشاكل التي أحاطت بترجمة رامبو ولا بكل الترجمات التي أنجزت وما تزال تنجز لقصائده، المنشورة منها والتي لم تنشر بعد. ولن أحاول أن أقنع الكاتب بقراءة أخرى مخالفة لجحيم رامبو كي أؤكد له بأنه ليس مجرد سكير وليس يصدق، أو لا يهم لو يصدق، ما قال عنه لما كتب أن «حياته العنيفة لا تمنع أن يكون قاتلا»!

أمر آخر أثاره الكاتب يتعلق بهجر رامبو للشعر مبكرا، ما لم يفهمه مرة أخرى سوى على أساس كونه من الأمور التي تسجل ضده لما كتب: «... غادر الشعر الى غير رجعة كما لو أنه نزوة طارئة نسيها تماما. بل انه في حياته وسلوكه لم يكن شاعرا ولا انسانا حقيقيا لا في المرحلة الشعرية ولا في بقية حياته. ومهما نحاول تأويلها فهي حياة انحراف واجرام وليست أبدا حياة شعراء ومبدعين». على عكس ما قرأنا هنا، أجد أن شجاعة أي مبدع بغض النظر عن رامبو تكمن في توقفه عن الكتابة اذا منح كل ما لديه، فكم من الشعراء المعاصرين لم تكن لهم الجرأة اللازمة كي يتوقفوا ما دامت تجربتهم قد توقفت توقفا طبيعيا، لأن الاصرار على الكتابة يسيء بالتالي الى تجربة جميلة سابقة.

لم أرد سطرا سطرا على مقالة الكاتب ولكني حاولت فقط أن أشير الى موطن الخلل في التعامل مع تجارب الآخرين سواء كانوا غربيين أو غيرهم، ذلك أن القراءة التي لا تستند على معرفة بالنص وتتوجه الى النص بأسئلة جدية وحصيفة ليست سوى مكابرة وأبوة متعالية على القارئ.

فالكاتب يجيء مسلحا بمحرمات كثيرة ومواعظ الى شاعر خصم في الأمر، فليس من الغرابة بمكان أن تتحول المعركة الى عنف رمزي ما دام الكاتب غير مهيأ لمعركة فكرية حرة اذ أسلحته لا تسمح له أن يطأ دنس أرض النزال، لذلك بقي بعيدا يشتم من غير علم أو يرفض بدواعي أخلاقية ودينية. ينسى أن الذهاب في المعرفة لا يعرف من يشمر لاتيانه ثمة راحة وأن الحقيقة مرة وتركيبها يشي بمخاطر قصوى أو لربما أنه أدرك أن الركون الى الترسانة الجاهزة من مهدئات أخلاقية أو دينية سهلة ولا تقتضي أي صداع رأس ولقد تتيح أكثر من ذلك توازنا نفسيا ورجاء غائيا ومبررا أكبر بل الهيا لمواصلة حياة مسترخية وآمنة مثل قيلولة في ركن قصي من بيت أبي سفيان أيام الخوف الأكبر! («وكفى الله المؤمنين شر القتال» «عن الكاتب».

* شاعر من المغرب يقيم في باريس

حانة البيرة السوداء

رشاد أبوشاور

صعدنا في الحافلة التي ستوصلنا إلى ذلك الحي الذي تقع فيه (حانة) شهيرة في (براغ)، يرى خليل أن زيارتي لها واحدة من الزيارات الهامّة، لأنها (معلم) من معالم العاصمة.

أخبرني بكلمات أرادها مؤثّرة:

ـ تصوّر! لقد زارها نابليون وشرب فيها تلك البيرة السوداء!.

هبطنا في مكان لا يبعد كثيراً عن موقع (الحانة). مضيت معه متأمّلاً الأبنية العريقة العتيقة، بينما هو يشرح لي تاريخ تلك الحانة:

ـ عمرها قرابة أربعمائة سنة، تصوّر! أربع ..مائة ..سنة! يا لطيف، كم من الناس زاروها، وشربوا بيرتها، وتبادلوا الأحاديث الوديّة، وبكوا على أكتاف بعضهم بعضاً، أو تبادلوا القبلات المحمومة ؟

سألته مستفسراً لإبداء شيء من الاهتمام بحديثه ،حتى لا يأخذ على خاطره منّي، خاصّة وهو يعنى بي منذ وفدت للعلاج الطبيعي في (تشيكوسلوفاكيا).

ـ ألا تقدّم تلك الحانة سوى البيرة السوداء ؟

سرّ بسؤالي:

ـ نعم، بيرة سوداء فقط. أول حانة تقدّم بيرة سوداء في كلّ أوروبة. المصنع والحانة متداخلان، ولذا لا يقدّمون سوى البيرة، يعني ما فيش (مازة) كما هو الشأن في حانات بلادنا...

رددت بصوت خافت :

ـ بلادنا! بلادنا! ... ليس فيك بيرة سوداء، ولا خضراء، ولا بنفسجيّة. ليس فيك سوى كأس المنون...

توقّف وأمسك بساعدي:

ـ لا تقلبها غمّاً. أنت جئت لتتعالج، وأنا هنا للدراسة وبعد بضعة اشهر أعود، قال أعود! أعود إلى أين ؟ أقصد أرجع إلى بيروت، فأتوظّف في (المنظمة)، أو أسعى لعمل في دولة خليجيّة، أو لعلّي أتمكن من الحصول على منحة لتكميل الدراسة لنيل الدكتوراه في بلد غربي. يا سلام لو تزيط معي لندن، أو باريس، أو مدريد، مدريد! آخ على راقصات الفلامنكو ...

فقّش أصابعه، ودار حول نفسه، وجاح بصوت ملتاع دون اهتمام بالمارّة الذين تأمله بعضهم بشيء من الفضول والدهشة، وصوته يعلو مع ضربات عشوائية من كعبيه على بلاط الرصيف.

هولي هولي

آآآآآآآخ

الآه هي عنوان علاقتنا بالحياة، نحن أمة الآخ، أي الآه، أي التوجّع ...

ثمّ:

ـ ولك يا حسن: إضحك، قهقه، حكمة أمّي هي الصحّ: يوم الصفا لا يتفوّت. عش يوم الصفا، كله أكلاً يا حسن يا أخوي ...

احتضنني، ودفعني للمشي بسرعة، فجاريته صامتاً، فالأوجاع في ساقي إثر الإصابة لا تمكنني من المشي السريع.

وصلنا !

صاح كأنما يكتشف المكان لأوّل مرّة، رغم أنه تردد عليه كثيراً، أحياناً مع (مارتا) صديقته (الأساسيّة) كما يصف علاقته بها، ومع غيرها عندما تسافر لزيارة أهلها في الريف.

دخلنا من بوّابة عريضة مفتوحة على صالة واسعة، فيها ألواح خشبيّة يجلس عليها الزبائن متلاصقين، وأمامهم ألواح خشبيّة غير مستوية السطح، وندل يحملون صواني عليها كؤوس كبيرة تفور فيها البيرة السوداء برغوة بيضاء عكرة.

أرحنا جسدينا صامتين، متأملين ما حولنا من روّاد.

لا شيء يثير، أو يشد. رؤوس تتمايل، أفواه تتهامس، ضحكات مكتومة، أو تفرقع ثمّ تغيض بسرعة.

وضع النادل أمامنا كوبين.

حرّضني خليل على الشرب:

ـ جرّب يا حسن، جرّب، ما هي إلاّ بيرة سوداء ...

ـ لون هذه البيرة مثل حظنا في الحياة، لون قاتم، والرائحة زفتيّة، فما الذي يجذبك ؟

ـ المكان ...

ـ المكان بائس يا خليل، لا ونس فيه، ولا حيوية.

ـ ولكنه قديم، ولقد زاره نابليون نفسه!

ـ أنا لست معجباً بنابليون هذا، وكونه زار المكان، فهذا لا يعني أنه جاء هذه البلاد سائحاً، تماماً كما فعل عندما (زار) بلادنا من قبل!

أخرج خليل من جيبه قطعة معدنيّة وأخذ يحفر اسمينا على الخشب، وسط دهشة شاب يجلس قبالته، أخذ يراقب ما يفعله.

سأله الشاب مستفسراً (خليل ترجم لي).

ـ هل تكتبون من اليمين إلى الشمال ؟

ـ نعم، هكذا نكتب لغتنا.

قدّم له دفتراً وطلب منه أن يكتب له شيئاً، فأخذ خليل يكتب، بينما الآخر، وقد نبّه زملاءه إلى طرافة ما يحدث، انخرط في ضحك صاخب، يشاركه زملاؤه، مستطرفين أننا نكتب لغتنا من اليمين إلى الشمال.

لكزت خليلاً في خاصرته، وطلبت منه أن يعطي الدفتر للفتى التشيكي، وأن يطلب منه كتابة شيء بلغته، فأخذ يكتب من الشمال إلى اليمين، فنظرت إليه بدهشة مفتعلة، ووجهت له سؤالاً (ترجمه خليل):

ـ ولكن، لماذا لا تكتبون من اليمين إلى الشمال؟

ففنطل عينيه، وأجاب:

ـ نحن تشيك ألا تعرف هذا، وهذه لغتنا!

قلت له:

ـ أنا لست تشيكيا، تصوّر!

ضحك، كأنما اكتشف شيئاً عجيباً.

لم يعد لدينا ما نفعله، فالحديث عن الحانة ونابليون انتهى، والبيرة السوداء في كأسينا بقيت كما هي، ومن كانوا يجلسون بجوارنا انهمكوا في ترديد أغنية يبدو أنها شعبيّة، بصوت جماعي، وهم يتمايلون على بعضهم.

في الشارع سرنا صامتين، وللخروج من حالتنا همهم خليل:

ـ يوم الصفا ما بيتفوّت! فلنفكّر في مكان يمنحنا بعض الصفاء قبل أن تعود إلى المصحّة، وأعود أنا إلى الغرفة للدراسة.

أمسك بيدي وسألني:

ـ ما رأيك أن أتصلّ بمارتا وأطلب منها أن تحضر واحدة من صاحباتها و...

ـ ولكنني بساق واحدة!

ـ وهل أنت ذاهب إلى ميدان المعركة يا حسن؟

ـ ولغتي تكتب من اليمين إلى اليسار ...

اصطحبني خليل إلى موقف الحافلات التي توصل إلى المصح، وهناك تصافحنا، واتفقنا على أن نلتقي الأسبوع القادم.

أرحت جسدي على المقعد في الحافلة التي انطلقت متهاديةً، ثمّ مسرعة، صاعدة طرقاً متعرّجةً على التلال، ممّا جعلني أدخل في حالة نعاس لذيذ وأنا أهمس: بيرة سوداء، نابليون، من الشمال إلى اليمين، شمال يمين، يمين شمال

ـ تذكّرت بداية مرحلة التدريب في المعسكر، وكيفيّة السير المنضبط في الطابور ـ ومع اهتزازات الحافلة نمت، ولم أستيقظ سوى على صوت السائق الذي وجدته ينحني فوق رأسي، وهو يهمس لي بكلمات فهمت منها أننا وصلنا. وإذ تلفّت حولي لم يكن أحد من المسافرين في الحافلة، فهبطت، وفي الجو فاحت رائحة المياه الكبريتيّة التي نتعالج بها. تحت الأشجار كان المرضى من العجائز يجلسون صامتين، وبعضهم يجلس وحيداً مغمض العينين.

سألتني المرضة التي تعنى بي عن رحلتي، وماذا شاهدت ؟ فأجبتها بأنني التقيت بالسيّد نابليون في الحانة، فسألتني ببراءة:

ـ ومن هو السيّد نابليون هذا الذي قابلته؟

ـ إنه شخص يكتب من الشمال إلى اليمين، ومع ذلك فقد زار بلدكم بدون فيزا، أو دعوة، تصوّري !...

تأملتني قليلاً ثمّ هزّت رأسها، وهي تردد كلمات بلغتها التشيكيّة، ربّما كان معناها:

ـ يبدو أنك شربت كثيراً يا سيّد حسن (ميزّت اسمي(حسن (في كلامها) ...

ضحكت لأنني اكتشفت أن اللغة عندما تحكى لا يمكن تبيّن إن كانت تكتب من اليمين إلى الشمال، أو من الشمال إلى اليمين، أو في خطوط عاموديّة كاللغة الصينيّة ...

جسدها الرشيق يبتعد، جسدها الذي لا يكتب بلغة محكيّة يتوارى، وأنا أتوجّه إلى سريري لأتمدد منتظراً صباح الغد الباكر لبدء مرحلة جديدة من العلاج، فساقي يجب أن تشفى: يمين شمال يمين ...